تقابل الشخصيات في رواية السيف والكلمة لـ(عماد الدين خليل) رؤية بلاغية

أ.م.د. أسماء سعود الخطاب أ.م.د. عزة عدنان احمد عزت
جامعة الموصل/ العراق جامعة زاخو/ العراق

Characters Opposition in the Novel (The Sword and the Word) by Emad Al-Deen Khaleel: a Rhetorical View

Asst. Prof. Dr. Asma' Su'ood Al-Kattab\ University of Mosul
Asst. Prof. Dr. Azza Adnan Ahmed Izzat\ University of Zako

Abstract

Opposition is a known rhetorical phenomenon that dominated the ancient Arab literature with various forms. Today it becomes a characteristic feature of modern literature. It also becomes a principle that reflects the contrastive reality; in addition to the fact that it represents psychological aspects and obscure feelings. Opposition involves various elements implying two counterparts whether in words, sentences , images, or situations.

الملخص

التقابل ظاهرة بلاغية معروفة، مختلفة الأشكال، سادت الأدب العربي القديم، وأصبحت اليوم سمةً مميزة في الأدب الحديث، وليس ذلك فحسب بل إحدى قوانينه بوصفها انعكاساً وترجمة للواقع المتناقض، فضلاً عن كونها تعبيراً عن حالات نفسيّة، وأحاسيس غامضة مبهمة تتعالق فيها الصور، وتنتظم فيها المفردات لتكوين صورة توضح الموقف العام. فالتقابل لدينا يشمل عناصر جديدة تقوم على الأساس التقابلي، وهو الجمع بين متقابلين سواء أكان التقابل بالألفاظ، أم بالجمل، أم بالصورة، أم بالموقف بأية علاقة تقابلية ترتبط بها النصوص.

ونظرا لطبيعة اللغة العربية المرنة والفاعلة التي تسمح بإيراد هذه الأنواع الجديدة من التقابل، اعتمدنا المنهج التحليلي في العرض، يقيناً منّا بعدم وجود قواعد بلاغية ثابتة تصلح للتطبيق على الظواهر كافة، فالقاعدة المستنبطة من استقراء خطاب معيّن لا تصلح بالضرورة للتطبيق على سائر أنواع الخطاب، ومن ثَمَّ لَزِمَ أنْ تتَّسِمَ القاعدة البلاغية بالمرونةِ والنسبية، وهذا يعني تطبيقها تطبيقاً نسبياً، فهو يختلف من ظاهرة إلى أخرى، بل يختلف في الظاهرة الواحدة من خطاب إلى آخر، فالتحليل البلاغي يقوم على تتبع الظواهر وليس تطبيق القواعد على تلك الظواهر، والقاعدة البلاغية في بحثنا هذا ما هي إلاّ خلفية معرفية تساعد على تكوين خبرة مكتسبة وتنمية مهارة تؤهلنا لعملية تتبع الظواهر البلاغية في نص الرواية التي هي مركز اهتمامنا، وبؤرة مقاربتنا البلاغية متخذين من النصّ كلّه وحدة للتحليل، وليس الجملة حسب، فالفهم الحقّ للظاهرة اللسانية يوجِب دراسة اللغة دراسةً نصيّة متكاملة، وليس اجتزاءً والبحث عن نماذجها وتهميش دراسة المعنى، فمن خلال (بلاغة النص) يمكن أن نشخِّص علاقات ما وراء الجملة من خلال النصِّ بتمامِه وذلك على المستوى المعجمي والنحوي والدلالي، عندها ستكون قراءة النص ممارسة حيّة، تقوم على أدوات بلاغية في تحليله.

وقع اختيارنا على تقابل الشخصيات في رواية السيف والكلمة للكاتب عماد الدين خليل انطلاقا من الإيمان بأنَّ الشخصية إحدى الأركان الأساسية التي لا يتم العمل الأدبي إلاّ بها، لأنّها تحتل موقعا هامّا في بنية الشكل الروائي، وهي إحدى المكونات الأساسيّة للرواية إلى جانب السرد والبيئة، وتأتي للشخصية أهميتها كعنصر أساسي في الرواية بتصوير المجتمع الإنساني الذي يشكل فيه الشخصُ العمودَ الفقري، والقوة الواعية التي يدور في فلكها كل شيء في الوجود. وتأسيسا على ذلك نرى أنْ لا رواية من دون شخصية تقود الأحداث وتنظم الأفعال وتعطي القصة بعدها الحكائي. فضلا عن كون الشخصيةِ الروائية العنصر الوحيد الذي تتقاطع من خلاله العناصر الشكلية الأخرى كافة، بما فيها الإحداثيات الزمنية الضرورية لنمو الخطاب الروائي واطراده. ولكي يؤدي الحدث في الرواية معناه القائم لابدَّ أن تتبنّاه شخصيّة تقوم به، وتتفاعل معه؛ لأنَّ الحدث يحمل معنى في نفسه، ومعنى آخر مع الشخصية التي يحركها، وهذا التداخل الواضح مظهر إيجابي في بنائيَّة الرواية عند عماد الدين خليل.

تقابل الشخصيات في رواية السيف والكلمة لـ(عماد الدين خليل)

رؤية بلاغيّة

التقابل ظاهرة بلاغية معروفة، مختلفة الأشكال، سادت الأدب العربي القديم، وأصبحت اليوم سمةً مميّزة في الأدب الحديث، بل إحدى قوانينه بوصفها انعكاساً وترجمة للواقع المتناقض، فضلاً عن كونها تعبيراً عن حالات نفسية، وأحاسيس غامضة مبهمة تتعالق فيها الصور، وتنتظم فيها المفردات؛ لتكوين صورة توضح الموقف العام. فالتقابل لدينا يشمل عناصر جديدة تقوم على الأساس التقابلي وهو الجمع بين متقابلين سواء أكان التقابل بالألفاظ، أم الجمل، أم بالصورة، أم بالموقف، بأية علاقة تقابلية ترتبط بها النصوص، ولاسيّما أنَّ طبيعة اللغة العربية المرنة والفاعلة تسمح بإيراد هذه الأنواع الجديدة من التقابل[١]، ويعد هذا تقنية للإشارة إلى نيّة البطل، أو موقفه، وأحياناً موقف الكاتب ذاته من الإنسانية جمعاء، أو من الفرد أو من المجتمع، أو من الأمكنة التي يعيش فيها، لذا لم تكن ظاهرة التقابل بأنواعه مجرد وسيلة لتحقيق غرض معين، إنما هي عمل ممنهج، وظاهرة أدبية متكاملة، فضلاً عن كونها صفة تدلّ على انفعال نفسي، والنفس عند الفيثاغوريين ((نوع من النغم؛ ولأن النغم مركب من كيفيات متضادة، والنغم في كيفية توافق الأضداد وتناسبها، بحيث تدوم الحياة ما دام هذا النغم، وتنعدم بانعدامه))[٢]، وبما أن النفس البشرية لها صفة بنيوية متضادة، أو لها قيمة ذاتية، وقدرة فاعلة في المجتمع، لذا انعكست هذه الصفات على أبطال الرواية؛ فنجد تقابلات ضدّية في الرواية في أشكال مختلفة توضح التوتر العاطفي، أو التوتر في علاقة الذات بمحيطها العام، فضلا عن التوتر والتأزم بين الفرد ومجتمعه.

وقد وقع اختيارنا على تقابل الشخصيات في رواية السيف والكلمة للكاتب عماد الدين خليل انطلاقا من الإيمان بأنَّ الشخصية إحدى الأركان الأساسية التي لا يتم العمل الأدبي إلاّ بها، فهي تحتل موقعا هامّا في بنية الشكل الروائي، وهي إحدى المكونات الأساسية للرواية إلى جانب السرد والبيئة، وتأتي للشخصية أهميتها كعنصر أساسي في الرواية بتصوير المجتمع الإنساني الذي يشكل فيه الشخص العمود الفقري، والقوة الواعية التي يدور في فلكها كلَّ شيء في الوجود، فلا رواية من دون شخصية تقود الأحداث، وتنظم الأفعال، وتعطي القصة بُعدها الحكائي.

وتظهر في الرواية حالة الرعب، والجوع، والألم، والمرض، والدمار، والقتل، والتشرد، وإبادة العلم والعلماء التي عانت منها بغداد بالتحديد أبان الغزو المغولي على العراق[٣]، لذلك لم يأت تشكيل العنوان في الرواية اعتباطاً، فقد حاول الكاتب أن يثبت أنه "لن يكون بمقدور الكلمة أن تواصل طريقها وسيف المغول مصلت عليها"[٤]، كما بين الطريق التي يجب سلوكها هنا وهي أن "علينا أن نحميها من القتل قبل أن نفكر في ممارسة طموحاتنا"[٥]، فالكلمة نفسها ترفض أن تتشكل في الظلام[٦]،

وتُعَدُّ الشخصية الروائية العنصر الوحيد الذي تتقاطع عبره كافة العناصر الشكلية الأخرى بما فيها الإحداثيات الزمنية الضرورية لنمو الخطاب الروائي واطراده، ولكي يؤدي الحدث في الرواية معناه القائم لابدَّ أن تتبنّاه شخصيّة تقوم به، وتتفاعل معه؛ لأنَّ الحدث يحمل معنى في نفسه، ومعنى آخر مع الشخصية التي يحرّكها، وهذا التداخل الواضح مظهر إيجابي في بنائيَّة الرواية عند عماد الدين خليل، فقد اعتنى برسم أبعاد شخصيّات روايته الظاهريّة، والنفسيّة من الداخل والخارج، وكان حريصاً كلَّ الحرص على التحامها بوحدة الحدث، والموقف في الرواية، وعناصر بنائها الفني، وفي أحيان أخرى يفرض الحدث نفسه بثقل في التشكيل الروائيّ ممّا يؤدّي إلى قراءة جديدة للعلاقات التقليديّة للحدث والشخصيّة وتعويضها بعلاقات نسيجيّة بنائيّة، من شأنها لملمة خيوط الصلة الدراميّة بين الحدث

(١) ينظر: التقابل في الحديث النبوي الشريف، أسماء سعود،١٠٠، أطروحة دكتوراه
(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم،٢٣
(٣) روايات عماد الدين خليل قراءة في(البنية والدلالة)، سعاد عبد الله أبو ركب، ١٠٢.
(٤) السيف والقلم، ٢٣٨
(٥) السيف والقلم، ٢٣٨
(٦)روايات عماد الدين خليل قراءة في(البنية والدلالة)/سعاد عبد الله أبو ركب،١٠١.

والشخصيّة، وبالتالي يتفّعل دور الشخصية أكثر، ويعمل على تنامي مساراتها المختلفة، ومن ثَّمَ يظهر بناؤها الوظيفيّ ويتحدَّد في سير مجريات الرواية، وتبعاً لتنوُّع الأحداث تتنوَّع الشخصيّات.

ويلحظ أنَّ الكاتب قد عمد إلى مسرحة الأحداث من خلال الاختلاف والتباين في النزعات والمشارب حتى تتطوَّر هذه الشخصيّات، ومن ثَمَّ تختلف، ويصل بها الأمر إلى حدِّ التصادم، وليس هذا فحسب فالكاتب يتيح لكلّ شخصية من شخصياته فرصة وجودها المستقل عنه من جهة، ويدعها تعبِّر عن نفسها من جهة ثانية، وينوع في طرائق هذا التعبير وموقعه من جهة ثالثة، كما يربط علاقات انسجام معها مؤكدا أنَّ القارئ لا يجد في الرواية جزئية واحدة لا تخدم سير الحدث في حاضره أو مستقبله، مما يدل على وعي الروائي بأنَّ أهمية النص لا تكمن في محتواه بل في كيفية بنائه لهذا المحتوى(١).

ومن هذا المنطلق، ومن منطلق أن الروائي الحقيقي هو الذي يخلق الشخصيات، استمدت النصوص الروائية الخليلية جاذبيتها، ورونقها، فأنتجت بذلك خليطا شخوصيّا مثيرا فنجد المثقف النخبوي، والمجتمعي، ونجد الصالح، والفاسد، الغني، والفقير من خلال محاورة الكاتب للراهن الاجتماعي المأساوي لمختلف الطبقات الاجتماعية، فتعددت الأصوات السردية وتوحدت الرؤيا، كل ذلك ضمن بنية سردية تنتقل من شخصية لأخرى ومن موقف لآخر.

وفي ورقة عملنا هذه سنختار بعض الشخصيات التي نجدها حمّالة لآيدولوجية التقابل وهي تتمحور في التقابل في الشخصيات، والتقابل في منظومة أسماء الشخصيات.

فأما التقابل في الشخصيات فوورد في شخصيات رئيسية، وشخصيات ثانوية فأما الشخصيات الرئيسية فتتمثل في شخصيتي: (الوليد) و(عبد العزيز) اللتان تقابلان: (الهوية واللاهوية).

- (الوليد) = المعرفة + ألق (العقل، الروح، الوجدان) + المثقف + خدمة الدين والوطن + الطموح = الهوية
- (عبد العزيز) = العقل + الطموح السلبي + العجلة والانتهازية واللامبالاة بالهم العام + الخيانة = اللاهوية

و يتجلى مظهر الحفاظ على الهوية من خلال فعل المقاوم والمستعمر الذي كان همّه الأول والأخير إسقاطُ هوية الذات الوطنية، ذلك الهمُّ الذي سخَّر له كلَّ السبل، والمناهج طيلة مكوثه في هذه الربوع، مع الإلماح إلى ذلك العزم على تشويه الهوية رافعة بالضرورة فعلا مضادا تبنته الشخصية في إثبات عناصر هذه الهوية' فلم يأخذ (الولي) بتطبيل المغول، ولم يسقط في فخ الترغيب والترهيب الذي نصبوه، فهو يخترق أقنعة التضليل، ويصارع بسيفه مع أصحابه الجيوش والبطش المغولي، لأنّه اختار طريق المقاومة بعد أن رأى أن الاستسلام والخنوع لا يجدي نفعا مع التغييرات الحاصلة التي طرأت على المجتمع.

يُمَثِّلُ (الوليد) المثقفُ شخصيةً نموذجيةُ، تتمتع بصفات تقرّبه من الكمال، ؛ لأنّه رمز للمعرفة المجردة، فصوته صوت جيل بأسره، يتوق إلى تجاوز واقع العفونة، وينزع إلى عالم أفضل، فالرفض هو العصب الأساس في نظرته للأحداث، الناشئ عن الوعي الحاد بالأزمة المدمرة، وبرفضه هذا يطرح مسؤولية المثقف المؤمن الذي يجب أن يوظِّف إمكاناتِه الفكرية والمادية في خدمة الحقيقة فضلا عن السمة الأبرز التي يتمتع بها (الوليد)، وهي قوته من ذاته، ومن سيفه، ومن إيمانه العميق بالله ((أستعيذ بالله، وأحصن روحي بكلماته، ليس ثمة إلّا عندما يجتاحنا الخوف، أنت الفرح حينما يحاصرنا الحزن، والأمن حينما يتوعدنا الرعب...))(٢).

أمّا (عبد العزيز) فهو يمثل الجانب المظلم من الصورة، فهو الطرف الآخر للصراع مجسدا الخيانة في أبشع صورها، فهو شخصية انتهازية حاولت الحصول على غايتها عن طريق المغول، عندما خان وطنه منغمسا في غبار الخيانة الذي اعتلى هامته بدل أن يكون وسام شرف، إذ شكل هولاكو ملاذ (عبد العزيز) الذي سيمنحه منصبا في المستنصرية! فهو صاحب المعرفة التي باع من أجل سعادته الشخصية كل القيم، ومن أجل أن يكون أستاذا دفعه ذلك الطموح إلى أن يخون نفسه، وبغداد، وأهل زوجته، فكانت قوته من خيانته فالكاتب يذكر: ((يحيط به، ويمتد صف طويل من المغول الذين تتلامع حافات سيوفهم الزرقاء كما يلتمع البرق في الأفق

(١) ينظر: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، نضال صالح، ١٨
(٢) السيف والقلم، ١٤

المعتم.. كلهم ينتظر الإشارة لكي يوغل في الدم.. وأسمعه يقول لهم مشيرا إلى والدي: هذا يكفي.. الآن على الأقل))[١]، و((ادخل يا عبد العزيز تلك الحلقة المغولية القريبة منك، وارقص، وغَنِّ، واصرخ... واضرب نعليك في الأرض، واجعل ترابها يتمرد على جغرافية المكان، لكي يتقافز فرحا ويرقص هو الآخر في الفضاء... اخترقت الحلقة، وبعنف فككت ما بين المغولي والمغولي، صرت ما بين اثنين منهم... بينهم تماما... وصرخت باللهجة المغولية التي تعلمت بعض مفرداتها مذ صرت ناظرا للمستنصرية: يحيا هولاكو...))[٢].

وتتسم المقابلة في النص بالحركة والتوتر، والحركة هي نزعة المتقابلين إلى التباعد أو نزعتها إلى التقارب، أما التوتر فهو التآلف أو التنافر بين اللفظين المتقابلين في أثناء هذه الحركة، فيكون المفهومان وثيقي الصلة، إذ يزداد التوتر عادة بازدياد النزعة إلى التباعد وينقص بنقصانها، وقد ينزع المتقابلان إلى التقارب بدرجة ينعدم أو يكاد ينعدم معها التوتر، إذ يتضافران وينسجمان للتعبير عن معنى واحد، فنلحظ في التقابل بين الشخصية الأولى والشخصية الثانية وجود درجة من التوتر أكسبت المقابلة نوعاً من البروز في السياق، وزودتها بشحنات دلالية متقابلة، يفجرها النص للتعبير والتأثير، وتهدف هذه العملية إلى مقارنة تفاضلية بين المتقابلين، وهذه المقارنة تسير وفق خطين هما:

- تحسس الفوارق والصفات الشخصية بين الشخصية الأولى (الوليد) والشخصية الثانية (عبد العزيز).
- الصراع النفسي للمتلقي ما بين قوتي (الهوية) و(اللاهوية)، فالهوية هنا تدفع المتلقي إلى الحفاظ على هويته المتضمنة للدين، والعادات، والتقاليد، وحق امتلاك الوطن، وحبه المتواصل، أما اللاهوية فتؤدي إلى أزمة حادة؛ لأنَّ المتلقي يتأرجح بين مدِّ الهوية، وجزر الآخر أي: (المستعمر).

ويبدو هذا الصراع واضحا وجليا بدءا من العنوان (السيف والكلمة)، ففيه مفردتان تقومان على تنوّع دلالتيهما بين التكامل، والتضاد، والتناوب في متن الرواية، ويدور أبرز صراع في الرواية بين (السيف) و(الكلمة)، وهو صراع ذهني فكري، لكنه لا يكون صراعا مجرّدا، بل تتمثّله الشخصيات، فردا من نحو (الوليد) و(عبد العزيز)، أو مجموعة نحو (المسلمين) و(المغول).

ويُدير المؤلف صراعا بين حضارة متألقة مزدهرة بَنَتْها كلمة الله ضد همجيةٍ طاغيةٍ، وحشيةٍ، جاهلةٍ، بَنَتْها قوّة السيف السلبية، يتجاوز هذا الصراع حدود الزمان والمكان، ضعفت كلمة بغداد، فاجتاحها سيف المغول، أمّا سيف المقاومة فقد وُلِدَ من قسوة الصراع.

وتأسيسا على ما سبق يُرى التقابل حاصلا لدينا بين (الهوية) و(اللاهوية)، فأمّا المفهوم الأول لهذا النوع من التقابل فيتحدد نظرياً في (اجتماع دالتين على الإثبات والنفي طردا أو عكساً)، وليس في الإثبات بوصفه إيجابا من زاوية النظر الفلسفية زيادةً أو نقصاناً؛ لأنَّه وسط بينه وبين السلب، فإمّا أن يكون الحكم موجبا، وإمّا أن يكون سالبا، فالإيجاب والسلب لا يجتمعان في الشيء الواحد، ولا يرتفعان، ونقيض كل شيء رفعه، والمراد بالرفع ما يُستفاد من كلمة (لا) و(ليس) وغيرهما[٣]، وهذا حاصل نتيجة مبدأ عدم التناقض[٤]، فنرى أنَّ مكمن التقابل هنا لا يتصل بمفرداته التي لا تكون من نفسها نواة للتقابل؛ لأنها لا تتضمنه، وإنّما الذي يتضمنه هو التركيب الذي يحتويها بما فيه من تناقض (السلب) و(الإيجاب) على مستوى المفهوم الكلي، وليس المنطوق الجزئي، وذلك بأن يكون أحدهما منفيّا، والآخر مثبتا، أو العكس، ويتحقق هذا باستخدام أداة النفي، فالهوية واللاهوية: غير متضادتين في الأصل المذكور، ولكنّهما اكتسبتاه بضميمة (النفي)، فالتقابل يؤدّي دورا مهمّا في فرز ما يصطرع من أفكار بين شخصيتي الرواية حتى يَتَجَسَّد هذا الصراع أو التضاد في الأفكار والأفعال في رؤيا (الوليد) أولّ الرواية، إذ يرى رؤيا تشير إلى خيانة (عبد العزيز)، الشخصية الرئيسة السلبية، ووقوعه في أحضان المغول بحثا عن منصب ما، وتتحقق الرؤيا في الواقع في نهاية الرواية عندما يأتي (عبد العزيز) بالمغول إلى بيت المعلم الروحي (سليمان)، وهو (أبو الوليد، وأبو حنان خطيبة عبد العزيز) ويدلهم عليه فيقتلونه.

(١) السيف والقلم، ٣٤
(٢) السيف والقلم، ٢٩٦-٢٩٧
(٣) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا: ٣٥٠/١
(٤) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا: ١٧٩/١.

وأما الشخصيات الثانوية فتتمثل في:(الشيخ الصرصري)، و(نصير الدين الطوسي)، وهما شخصيتان تختلفان عن بعضهما البعض في الأفكار وطريقة التعامل مع الأحداث، وهما وإن كانا يحملان الصيغة التقابلية إلاّ أنهما يختلفان عن (الوليد) و(عبد العزيز)؛ لأنَّ الشخصية الروائية هي نتاج تقاطع واحد في شبكة العلاقات، لا تتكرر، وإلاّ نتج عنها أكثر من شخصية واحدة ومتشابهة بشكل غير مبرَّر، فنضطر إلى حذفها، فالصرصري شيخ رفض إعطاء الغزاة شرعية كانوا يسعون إليها، خاصة إذا جاءت من شيوخ لهم مريدوهم، ولهم سمعتهم العلمية، والدينية التي لا يختلف عليها الناس، واختار الموت، وهو الرجل الضرير:((بعثوا إليه يطلبون من أنْ يتحوَّل إلى إحدى الدور التي منحوها الأمان، فأبى، وقاتلهم بما وصلت إليه يداه.. الحجارة، والأشياء.. حتى خلصوا إليه، فقتلوه.. لعلك تتساءل من خلال قناعتك نفسها، لماذا لم ينتهز الفرصة، ويتحوّل إلى خط الأمان مبرِّرا فعلته بأنَّه يريد أنْ يشعل فتيل العرفان؟ كلا يا عبد العزيز لقد أدرك الصرصري تماما مغزى الذهاب إلى هناك، إنه بشكل من الأشكال نوع من الانتماء للغالب...الرضا بكلمته.))[١] بينما كان موقف نصير الدين الطوسي متضادا ((...إنهم يرتضون أن يكونوا أدواتا لتمرير الفتوى التي أصدرها نصير الدين، وأنت تعلم – كذلك – أنَّ المغزى الأخير لفتواه هذه هو رفض المقاومة، والاستسلام للسيف القاهر...الكلمة التي تبحث عن تبريرها فيما هو مناقض لبداهات التاريخ والعقيدة.. تغدو هي الأخرى سيفا يحزُّ رؤوس الأهل والعشيرة، أداة طيعة يحصد بها الغالب عقول المغلوبين، وأرواحهم.))[٢].

وهكذا نرى نجاح الرواية في بناء هذه العلاقات التقابلية في أمرين اثنين[٣]:

- قدَّمت الشخصيات على نحو تلقائي، فكلّ من الشخصيات المتضادة كانت مصدر إضاءة شديدة على الأخرى.
- ألغت أية فرصة لتبرير الخيانة، فالذي رفض، وقاوم كان ضعيفا بكلّ المقاييس الماديّة، شيخ، ضرير، عاجز يقاوم حتى الموت، ويموت ميتة بطل تراجيدي بامتياز؛ من حيث كون البطل التراجيدي هو الذي يموت في حومة معركة ميتة يختارها هو، فمصيره هويته، وهويته هي مصيره.

وأما المحور الثاني في التقابل فهو: (التقابل في منظومة الأسماء) ويمكن أن نتحدث من خلاله أكثر عن أهمية التقابل باختراق عوالم خليل الروائية التي تجلّت فيها بوضوح تلك الأطروحة النقدية القائلة إن ((الشخصية الحكائية بمثابة دليل signe له وجهان: أحدهما دالّ Signifiant، والآخر مدلول signifié، فأمّا من حيث الدال فإنها تتَّخذ عدّة أسماء، أو صفات تلخِّص هويتها، وأما الشخصية كمدلول فهي مجموع ما يقال عنها بواسطة جُمَلٍ متفرقة في النص، أو بواسطة تصريحاتها، وأقوالها، وسلوكها))[٤]، وهذا ما وجدناه فيما طرحٍ سابقٍ، أمّا دالّ الأسماء في الرواية فقد رأينا فيه الأهمية الكبيرة التي يستحوذ عليها الاسم الشخصي في الرواية، وكيف أنه يحدّد الشخصيّة ويجعلها معروفة، ويختزل صفاتها، ولهذا لابدَّ للشخصية أنْ تحمل اسماً يميِّزها، ونحن نتتبع مسار الاسم في الرواية اتضح لنا مدى اهتمام الكاتب بهذا الجانب متوخِّيا بذلك مدى مناسبة أسماء شخصياته مع مسمياتها، وكيف تقابلت الشخصيات بأسمائها، فأسماء الشخصيات تختلف من رواية لأخرى، ومن راوٍ لآخر، و((يترجح استخدام الروائيين لأسماء شخصياتهم الحكائية بين مستويين تعبيريين دائما، مستوى اعتباطي يخلو الاسم معه من أية دلالة، وآخر رمزيّ، يبدو الاسم معه موحيا وزاخرا بالدلالات المعبرة عن السمات المميّزة لهذه الشخصية الماديّة والمعنوية))[٥].

ولمّا كانت الشخصية محورا تدور حوله كل الأحداث والاسم فيها يأخذ غالبا طابع الاختيار المدروس الذي تتطلّبه الشخصية الروائية؛ لأنه تَمَثُّلٌ لقيمةٍ محدودةٍ نشير على مسمّاها من دون مطالبة مسبقة لها بأن تدلّ عليه بقوة وجودها؛ لذا فإنَّ الاسم توكيدٌ لخصوصيةٍ ذات طابع مترسخ من الدلالة المتواترة، لما اختير له من دالّ ينطق بمدلول، وقد وعى خليل هذا الدور في روايته، وجعل

(١) السيف والقلم، ٢٢٦
(٢) السيف والقلم، ٢٢٥
(٣) ينظر: السيف والكلمة، دراسة في بنية السرد، د. عمار أحمد عبد الباقي الصفار، ١٢، بحث مخطوط
(٤) النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ١١٢
(٥)النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ١١٤

اسم الشخصية متلائما، ومكملا لجملة التقنيات الفنية التي يتبعها الروائي، وهو يقدم شخصيته؛ ليتطابق الاسم مع المسمى، نظرا لاعتماد الروائي على الاسم الذي يبرز الشخصية، ويحمل ملامحها النفسية، والاجتماعية، كما يحمل العديد من المعاني والدلالات التي تهدف الرواية للتعبير عنها فالكاتب درس شخصياته في مختبره الإبداعي قبل ولادتها على الورق ((لتكون متناسبة ومنسجمة حيث تُحقق للنص مقروئيته، وللشخصية احتماليتها ووجودها، ومن هنا مصدر ذلك التنوع والاختلاف الذي يطبع أسماء الشخصيات الروائية))[١].

❖ (اسم الوليد)

الوَلِيدُ: الصبي حين يُولَدُ، وقال بعضهم: تدعى الصبيّة أَيضاً وليداً، وقال بعضهم: بل هو للذكر دون الأُنثى، ويقال غلامٌ مَوْلُودٌ وجارية مَوْلودةٌ أَي: حين ولدته أُمُّه، والولد اسم يجمع الواحد، والكثير، والذكر، والأُنثى[٢]. فهو المولود حين يولد، ويقال أفكاره كانت وليدة تجربة عاشها أي منبثقة، فاختيار الكاتب لهذا الاسم لم يأتِ اعتباطا. وإنَّما لغايةٍ في نفسه، تمليها عليه طبيعة الشخصية، والدور الذي تمارسه في الرواية، فاسم الوليد يتقابل مع معناه ودوره في الرواية تقابلا تماثليا، فـ(التماثل) يضمُّ دلالات (التشاكل، والتشابه، والتوافق، والند) ممّا يقع بين طرفين أو أكثر على أساس صفة أو صفات ملحوظة في الاثنين أو في المجموعة، وربَّما أثار (التشاكل) إلى المصاحبة أيضا، لتكون المعادلة النظرية على النحو الآتي:

(التشابه + التشاكل (الموافقة + المصاحبة + المشابهة) = (التماثل)[٣]. فاسمه يمحو اليأس عن الآخرين المنتظرين، ويبعث الأمل في نفوسهم، وعليه تُعْقَدُ الآمال، وتبنى الأحلام إلى كل فعل تغييري[٤]، فالعلاقة بين اسم الوليد ودلالته تقوم على الاتفاق، والتواؤم، فقد اختار الكاتب اسما مطابقا لوضع الشخصية في الحدث كما ينسجم مع أبعادها النفسية، والثقافية، ولِتَتَماشى مع الشخصيات النمطيّة ذات الحضور الواسع اجتماعيا؛ نظرا لأهميتها في تشكيل الخطاب، ولما لها من حضور ثقافي، ومكانة اجتماعية، إذ تدلّ الشخصية على وضعها، ومكانتها، وبتحميل الشخصية اسما ذا دلالة، جعل منها شخصية بارزة في الرواية، يتطابق اسمها معها ((لقد اعتدت دائما أنْ أتحسَّس مقبض سيفي في لحظات الاستفزاز، وأنْ استجيبَ للتحدي بلمح البرق.. لكنّها تعاليم الأستاذ، أقول في نفسي.. لست وحدي، ولن أكون سببا في انكشاف الإخوة والأنصار... في سوقهم إلى حتوفهم أن أتعلم كيف أصير في اللحظة المناسبة كالحديد البارد... ككتلة الثلج المتجمد من مئات السنين، فذلك هو المطلوب))[٥]

❖ (اسم عبدالعزيز)

اسم علم، مذكر، عربي، مركب بالإضافة، وتأتي لفظة (عبد) في الشرع واللغة على ثلاثة معاني[٦]:

- العبودية الأولى: عبد بمعنى مقهور، وفيه يستوي الناس كافّة، المؤمنون والكافرون، فكلهم عبيد لله جلَّ في علاه؛ لقوله تعالى في سورة مريم في الآية ٩٣: ((إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا))، فهذه عبودية مطلقة، يستوي فيها المؤمن، والكافر، والملائكة، والجن، والأنس.
- العبودية الثانية: وهي عبودية بالشرع، وهي ضد كلمة حر، تطلق على مَنْ يُسْتَرَقُ في الجهاد، ويؤخذ كأسير بقطع النظر عن لونه، قال الله جل وعلا في سورة البقرة من الآية ١٧٨((الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ)).
- العبودية الثالثة: عبد بالطاعة والإتباع: وينقسم على قسمين:
  - طاعة لله، وهذا الذي يتنافس فيه عباد الله الصالحون.

(١) الستائر المخملية، الملامح الأنثوية في الرواية السورية حتى عام ٢٠٠٠، محمد قرانيا، /٧
(٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢٥٤/٣٠ وما بعدها(مادة ولد).
(٣) ينظر: التقابل في الحديث النبوي الشريف، ٩٨
(٤) ينظر: شعرية الخطاب الروائي في السيف والكلمة لعماد الدين خليل، محمد صالح خلف، ١٦٢، أطروحة دكتوراه
(٥) السيف والقلم، ٧
(٦) الحاوي في تفسير القران الكريم www. Al_eman. com

- عبد لغير الله (أعاذنا الله) وهذا بابه وساع، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم)، أي: الذي يطيع هواه يطيع دينارَه، يطيع درهمه، وهذا مصيره، الضلالة والخسران. أي يكون الإنسان عبدا لقوة يستعصي على من يواجهها أن ينال منها.

وأمّا لفظ (العزيز) فيحمل دلالة القوي، المنيع، الغالب، فهو من أسماء الله الحسنى، وتُرى فيه – مجردا عن السياق والرواية – دلالة إيجابية، لكنّ حركيّة الشخصية داخل الرواية استقطبت الدلالة السلبية للاسم، فهو اسم جاء مقصودا به تأكيد خضوعه لهوى نفسه، ورغباته الدنيوية التي تمثل لديه العزّة، فهو عبد لها، أو عبد للقوة الغالبة (المغول)[١]

ويظهر قيام العلاقة بين الاسم ومعناه على التضاد والتنافر، إذ يلجأ الكاتب إلى منح الشخصية اسما يتناقض مع ماهيتها؛ بغية إظهار المفارقة التي من شأنها التركيز على الشخصية، وتوضيحها، وإظهار خصوصيتها، أو فرديتها ((كلا يا عبد العزيز إنَّ للذهاب إلى المغول مغزى آخر، إنّه بشكل من الأشكال نوعٌ من الانتماء للغالب.... الرضا بكلمته... وإعطائه الشرعية التي يتوقون إليها))[٢]. وهذا الكلام ينطبق على جميع شخصيات الرواية الرئيسة منها[٣] بفارق وجود أسماء لشخصيات ثانوية حملت فضلا عن أسمائها، ألقابا ((فاقتران الاسم بالنسبة، أو الكنية، أو اللقب، غايته تقريب الشخصية من الواقع في ذهن القارئ، ومن ثَمَّ جعلها متميزة بالوضوح والتفرد))[٤]

ويبدو لنا من خلال كل ما سبق في هذا العمل أنَّ الكاتب حاول أن يخاطب فينا عقولنا، محذرا باقتراب لحظات الانهيار ما دمنا أمام عالم آيل للسقوط في أي لحظة، إنه يتوقع الكارثة قبل حضورها، ويستشعر أزمة المثقف انطلاقا من كونه المثقف في حد ذاته، وفي الوقت نفسه يطرح أسئلة تراوده وهي: متى سينعم المثقف بالراحة والاطمئنان في وطنه؟ متى ستعود له هيبته ورهبته؟ ومتى سيحق له القيام بدوره على أحسن وجه بعيدا عن التقرب زلفى إلى الحكام؟ متى سيسقط قناع التصنع والتهريج ... ؟؟؟.

بقي أنْ نقول إنَّ وجهة نظرنا في تحليلنا لنماذج من الشخصيات حسب ترتيبها في الروايات ناتج عن فهمنا الخاص للنص من خلال العلاقة التي نشأت بيننا وبينه، وبالتالي فقد لا يكون هذا التحليل حتميّا أو مُلزِما؛ لأنَّ تعدد وجهات النظر والاختلاف في فهم النصّ يعود بالدرجة الأولى إلى اختلاف العلاقة التي تربطه بالقارئ، فكل قارئ ينفعل انفعالا خاصا به مع أنه يسلك سبل القراءة عينها التي يفترضها النص على جميع القراء، وعليه، فإن القراء يطلّون على الأحداث الروائية من خلال وجهة نظرهم الشخصية، ويتباهون معها، ولكنَّ ردود أفعال هؤلاء القراء أمام هذا التماهي الآلي الذي تثيره المعرفة المشتركة تختلف اختلافا قد يكون كبيرا، فمنهم من يرى في كلّ ذلك إثراءً في معرفة الشخصيات، وخبايا نفوسها، ويوافق بالنتيجة على سلوكها، أو يقبل بعض الشيء، ولكنَّ بعضهم يرى في ذلك مبرِّرا لإدانة الشخصية أخلاقيّا، عبَّر عنها الكاتب بكل واقعيّة تمسّ كلّ الفئات، وشرائح المجتمع، وهذا أمر طبيعي، لأن الكاتب ابن مجتمعه، وأمته، ولا يكتب خارج إطارهما، وبالتالي فالرواية ليس بمقدورها قطّ أنْ تعرض كونا يختلف الاختلاف كلّه عن العالم الذي نعيش فيه، كما أنَّ النص الروائي يعجز عجزا كاملا عن إبداع شخصيات تختلف اختلافا كاملا عن الشخصيات الحيّة التي يحتكّ بها القارئ في حياته اليومية.

(١) ينظر: شعرية الخطاب الروائي، ١٦٥
(٢) السيف والقلم، ٢٢٦
(٣) ينظر: شعرية الخطاب الروائي في السيف والكلمة لعماد الدين خليل، ١٦٢-١٦٧
(٤) الستائر المخملية، ٧

المصادر والمراجع

١- تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم، بيروت.

٢- التقابل في الحديث النبوي الشريف دراسة بلاغية في كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، أسماء سعود الخطاب، أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل/العراق، بإشراف أ. د. عبد الوهاب العدواني، ٢٠٠٥م.

٣- الحاوي في تفسير القران الكريم www. Al_eman. com

٤- روايات عماد الدين خليل قراءة في(البنية والدلالة)، سعاد عبد الله أبو ركب، مجلة جيل العدد الرابع، ٢٥ يونيو ٢٠١٥م.

٥- الستائر المخملية، الملامح الأنثوية في الرواية السورية حتى عام ٢٠٠٠، محمد قرانيا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤ م.

٦- السيف والقلم، د. عماد الدين خليل، المركز الثقافي العربي، ط١، المغرب، ٢٠٠٧م.

٧- السيف والكلمة، دراسة في بنية السرد، د. عمار الصفار، بحث مخطوط، مقبول للنشر في مجلة آداب الرافدين التي تصدر عن كلية الآداب في جامعة الموصل/العراق.

٨- شعرية الخطاب الروائي في السيف والكلمة لعماد الدين خليل، محمد صالح خلف، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل/العراق، بإشراف: أ. م. د. عبد الله فتحي الظاهر، ٢٠١٠م.

٩- لسان العرب، ابن منظور، دار نوبلس، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

١٠- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، د. جميل صليبا، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

١١- النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، نضال صالح، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.